

الجائزة

في التاريخ والتراث اللغوي عند العرب

د. مسعود بوبو

لمفهوم الجائزة في حياتنا الاجتماعية وقع خاص يحظى بالاهتمام والاعجاب بمن حازها ، لما يعنيه الفوز بها من ثبوت تفوق يمتاز به الفرد من المجموع .. تفوق في الفكر أو الفن أو أي ضرب من المهارات الأخرى . ومن هنا ربما خطر في بالك أن تتساءل عن أصل الجائزة ، وكيف خص العرب بها مستحقها ، ثم كيف استوت مصطلحاً معروفاً في لغتنا العربية ؟

وبادئ الرأي نقول : ان للجائزة في تراثنا العربي أصلين ، أو وجهين ، نلتمس في الوجه الأول لونا مما يسميه المحدثون التأصيل اللغوي ETYMOLOGY الذي اعتمد عليه المفهوم العام . ونلتمس في الوجه الثاني لونا من الحكاية التاريخية ، أو المناسبة التي عاشتها طلائع جنود الفتح ابّان المراحل الأولى من جهاد المسلمين ونشر عقيدتهم خارج جزيرة العرب .

ويحسن بنا أن نتحرى أيضاً أصل معنى الاجازة لغة وعلى وجه الدقة حتى نتجنب الالتباس أو الخلط بين المعاني الهامشية أو الثانوية التي تفتني بها هذه المادة اللغوية (جوز) فهذا الأصل ذو دلالة حسية حركية تتصل بالمكان . يقال مثلاً : جاز الموضع « جوازاً » اذا سلكه وسار فيه ، ويلخص ابن فارس دلالة هذا الأصل بقوله : « الجيم والواو والزاء أصلان : أحدهما قطع الشيء ، والآخر وسط الشيء »^(١) والذي يعنينا « هنا » : قطع الشيء . أي انتقال المتحرك من موضع كان فيه الى موضع آخر قاطعاً مسافة ما ، قصرت أو طالت . وينطبق هذا

الكلام على كل متحرك من انسان أو حيوان أو غيم أو اعصار أو مركب في الماء أو الفضاء ، وربما استعير المعنى للزمن فأُعطي مفهوم التجسيم والانتقال .. ويقولون في المعاجم وكتب اللغة : أجاز الشيء أو الموضع واجتازه اذا خلفه وقطعه بعد أن سار فيه ، وربما قالوا : تعدّاه ، ويستشهدون لذلك بقول امرئ القيس في معلقته :

فلما أجزّنا ساحة الحيّ وانتحى بنا بطن' خبت' ذي قفاف عَقَنَقَلْ

ويروى : ذي حقاف .. والمجتاز : مُجْتَاب الطريق ومُجِيزه .. وجوائز الأمثال والأشعار : ما جاز من بلد الى بلد (٢) .. والمجاز والمجازة : المَعْبَر .. وعليه فالجسر أو القنطرة مجازة النهر ... فاذا ما تأملت هذه المعاني كلها تجدها حسية الأصل والمنشأ ، مادية الدلالة والمفهوم ، وارتباط أمثال هذه المفهومات بالجانب الحسي مردّه الى طبيعة الحياة التي كان يعيشها الانسان العربي الذي استخدمها ، فلقد كانت الحركة واعمال الأطراف والعضلات أمراً سابقاً لاعمال العقل الذي كان نشاطه أقل . وبدهي أن هذه الظاهرة الحسية تمثل المرحلة المبكرة التي عرفتھا أغلب الأمم القديمة في تاريخها الاجتماعي ، وأغلب اللغات في ألفاظها ، وتعرف هذه الفترة المبكرة من تاريخ لغات البشر بطفولة العقل ومحدودية مشاغله واهتماماته ...

واذا ما تتبعنا هذه المعاني المأخوذة من مادة (جوز) في المرحلة الاسلامية وجدنا ألواناً من الاستخدامات الجديدة ، وهذا يعني أموراً كثيرة ، منها : مقدرة لغتنا العربية على استيعاب متطلبات العقيدة الجديدة ومعطيات التفكير الاسلامي ، كما يعني أن العربية تتصف بطاقة ابداعية معطاء وقادرة على مواكبة نموّ العقل وتشعب شؤون الحياة ، ويعني - فوق هذا - أن مهارة أصحاب اللغة ذاتها وحيوية التفكير عندهم كفيلتان بالاستجابة لمقولة : (الحاجة أم الاختراع) بما يمتلكون من يقظة الذهن وحسن التدبر والتكيف مع الضرورات .. ومن هنا ولّدوا من هذه المادة ، أو وظفوها للأغراض الاسلامية فقالوا : تجوِّز فلان في صلاته أي خفّف ؛ ومنه الحديث : أسمع بكاء الصبي فأَتَجَوَّزُ في صلاتي ، أي أ'خفّفها وأ'قلّلها (٣) .. وكثيراً ما نسمع أو نقرأ في قضايا الفقه والتشريع عما

« يجوز » ولا يجوز شرعاً ، ويعني ذلك بصورة عامة أنه لا يمضي ، أو لا ينفذ ، أو لا يُسَمَّح بتعدي الحدّ فيه . . . وشقوا من هذا الأصل لعلوم البلاغة فقالوا مثلاً : تجوّز في كلامه ، أي تكلم بالمجاز . فكأنه ترك الحقيقة والأصل وانتقل الى ما يماثلهما ، وذلك أمر ذهني من اختصاص العقل والتصور ، وعليه قالوا : ذلك أمر لا يُجَوِّزُه العقل . وقالوا من ذلك في المعاملات الاجتماعية : المُجَيِّز هو القيمّ بأمر غيره ، كالولي والوصي وغيرهما . . . (٣)

وفي مطلع الفترة الاسلامية عكف العلماء على تتبع العربية خدمة للدين ، ووصولاً الى فهم أسرار التنزيل بالاستعانة بالمعاني اللغوية الأصول . فأفادوا من مادة « جوز » تلك باستخلاص تصورات أو مصطلحات جديدة بأساليب التوليد ، والنقل ، والتوسع المجازي كما سبقت الإشارة قبل قليل وكقولهم : جاوز فلان فلاناً عن ذنبه اذا لم يؤاخذه به ، وتجاوز عن الشيء اذا أغضى أو عفاً ، وجاز العقد : نفذ ومضى على الصحة . . . (٤)

ذلكم هو المعنى اللغوي العام لأصل التسمية وتطوره مأخوذاً من الجذر الذي يفيد - هنا - القطع مع شيء من الاختصار المناسب .

أما قصة الجائزة بمعنى الهبة أو العطية أو المكافأة فترجع الى حادثة مشهورة في التاريخ الاسلامي كما قلنا في البداية ، وتتناوب كتب التراث سرد هذه المناسبة التي عرفت بها الجائزة وشاع معناها من خلالها بين الناس بروايات مختلفة ، من ذلك ما قاله الكرمانى من أن أصلها يرتبط بقطن بن عوف من بني هلال بن عامر بن صعصعة الذي ولي فارس لعبد الله بن عامر ، فمرّ به الأحنف في جيشه غازياً الى خراسان ، فوقف لهم على قنطرة فقال أجيروهم ، فجعل ينسب الرجل فيعطيه على قدر حسبه (٥) . . .

وقال الأنباري : الجائزة : أن تعطي الرجل ماء وتجيّزه ليذهب لوجهه فيقول للقيّم على الماء : أجزني ، أي أعطني ماء حتى أذهب لوجهي وأجوز ، ثم كثر حتى سموا العطية جائزة (٦) .

وقال ابن دريد في « الجمهرة » : « الجوائز : العطايا ، الواحدة جائزة » قال (أي السيوطي) : وذكر بعض أهل اللغة أنها كلمة اسلامية ، وأصلها أن أميراً

من أمراء الجيوش واقف العدو ، وبينه وبينهم نهر ، فقال : من جاز هذا النهر
فله كذا وكذا ؛ فكان الرجل يعبر النهر فيأخذ مالا ، فيقال : أخذ فلان جائزة ،
فسميت جوائز بذلك (٧) .

ويورد الامام أبو الحسن البلاذري صاحب كتاب « فتوح البلدان » مناسبة
هذه التسمية على نحو مغاير قليلاً فيقول : « وولّى الحجاج قطن بن قبيصة بن
مخارق الهلالي فارسَ وكرمان ، وهو الذي انتهى الى نهر فلم يقدر أصحابه
على اجازته ، فقال : من جاز فله ألف درهم ، فجازوه فوفى لهم فكان ذلك أول
يوم سميت الجائزة فيه ، قال الشاعر وهو الجحاف بن حكيم :

فدى للأكرمين بني هلالٍ على علاّتهم أهلي ومالي
هم سنّوا الجوائز في معدٍّ فصارت سنةً أخرى الليالي
وماحهم تزيّد على ثمانٍ وعشرٍ حين تغتلف العوالي (٨)

والذي يؤخذ من هذه الأقوال التي توزّعها كتب التراث أن معنى الجائزة
يرتبط بعبور نهر ، أي اجتيازه أو جوازه من الضفة التي كان يقف عليها
الجند الى الضفة الأخرى . ولم يفعل ذلك هدية عينية ، أو عطية . والذي
اختلف فيه هو نوع المأخوذ ، هل هو الماء أو المال ؟! ولعل المرجح هنا أن
العطية كانت ماء ، والذي نعتمد عليه في ذلك ثلاثة أدلة هي من القوة والوضوح
بحيث لا تدفع أو ترد :

١ - ارتباط القصة بجنود الفتح ، فهؤلاء كانوا حملة رسالة وعقيدة ، ولم
يذكر التاريخ أو المؤرخون عنهم في خطوات الفتوح التي قطعوها أنهم اشترطوا ،
أو اشترط عليهم قادتهم دفع الأموال حتى يقوموا بالجهاد بعد ذلك ؛ بل لقد
كانت الخطب وحدها كفيلة بتنافسهم على الاقدام والتفاني في التضحية ، يعزز من
اقدامهم ايمانهم بقدسية الشهادة وثوابها عند الله في الآخرة ، وما بالمال وصل بهم
طارق بن زياد الى الأندلس مجتازاً « البحر » ، لا النهر ، ولا بجوائز المال
وصل بهم محمد بن القاسم الثقفي الى الهند ، أو تجاوز بهم قتيبة بن مسلم
الباهلي بلاد خراسان الى حدود أفغانستان وروسيا . ويقوّي هذا الرأي ما أثبتناه
من قول الأنباري : « فيقول للقيم على الماء : أجزني ، أي أعطني ماء حتى أذهب
لوجهي ، وأجوز ، ثم كثر حتى سمو العطية ماءً » . وقول ابن منظور :

« أصل الجائزة أن يعطي الرجل الرجل ماءً ويجيزه ليذهب لوجهه ، فيقول الرجل إذا ما وَرَدَ ماءً لقيّم الماء: أجزني ماءً ، أي أعطني ماءً حتى أذهب لوجهي وأجوز عنك ، ثم كثر هذا حتى سمو العطية جائزة» (٩) . أي أن الجائزة صارت تطلق على الماء نفسه ، أو على ما يؤخذ منه .

٢ - طغيان لفظ الماء ودلالته على كثير من مشتقات هذا الأصل اللغوي « جوز » وما استعير له من ذلك ، كما يلحظ من استقراء تفصيلات هذه المادة في المعاجم ، اذ ليس من المعقول أن يكون علماء اللغة وأصحاب المعاجم قد وقعوا في الوهم والغفلة حينما أفادوا من معطيات تلك الحادثة التاريخية وعمموا استخدامها في مجالات جديدة يتصل كثير منها بالماء وباعطائه ، أو بكميته في شبه تحديد دقيق ، يقولون من ذلك : استجاز المسافر فلاناً : أي طلب منه مقداراً من الماء يجوز به من منهل الى منهل . ويقولون : استجاز فلاناً : طلب منه أن يسقي له زرعاً أو ماشيته . . والجيزة من الماء مقدار ما يجوز به المسافر من منهل الى منهل ، يقال : اسقني جيزة وجائزة وجوْزة (١٠) . فكيف ارتبط ذلك المقدار من الماء المطلوب بمادة (جوز) ؟ وكيف ارتبطت سقاية الزرع أو الماشية « واسقني جائزة » بهذه المادة التي تتجه في أصلها الى التجاوز بقطع مسافة ما ، والى وسط الشيء ؟!

ان تحليل وجود هذه الأمثلة والشروح تحت مادة « جوز » اللغوية يصعب توجيهه وتفسيره بغير ربطه بتلك الحادثة التاريخية التي توزعت روايتها المصادر ، والا فكيف نفسر أيضاً قولهم : الجائز : الذي يمر على القوم وهو « عطشان » ، سقي أو لم يسق . وقولهم : الجواز : الماء الذي يسقاه الزرع أو الماشية . . والجوزة : الشربة الواحدة من الماء (١١) . .

٣ - تقييد ابن فارس هذا الجذر اللغوي « جوز » بأصلين : أحدهما قطع الشيء ، والآخر وَسَطَ الشيء . من غير أية اشارة الى صلة الماء بهذه المادة أصلاً . وبعد ، أفليس من الغريب أن أحداً من لغويينا الأفاضل لم يتنبه الى أن ماله صلة بالماء من هذه المادة كان دلالة طارئة ، أو مكتسبة على وجه الافادة من الحادثة التاريخية حصراً ؟ ، أي أن أصل تسمية الجائزة اسلامي ، وليس لغوياً . . ولم يفكر أحد ممن أخرجوا المعجم الوسيط « مثلاً » بمحاولة الربط بين المعنى القديم - الأصل ، والمعنى الطارئ الذي كان وليد قصة أو مصادفة ، بل بقيت

عندهم كلمة الجائزة بمعنى المقدار من الماء رديفة لمفهوم العطية البعيد - كما هو واضح - عن أصل دلالة الجذر اللغوي !. حتى ابن فارس نفسه فاته ذلك حين قيد في «مقاييسه» أن : «الجَوَاز : الماء الذي يُسْقَاهُ المال من الماشية والحَرث». وحين قيد : «استجرتُ فلاناً فأجازني ، إذا أسقاك ماءً لأرضك أو ماشيتك . قال القطامي :

وقالوا فُقيِمَ قِيَمُ الماء فاستَجِرْ عُبادة ان المُستَجِرَ على قتر

أي ناحية» (١٢) . قيد ذلك من غير تعليل أو تفسير لدلالة السقي وصلتها بأصلي المادة عنده : (قطع الشيء ، ووسطه) ؟! مع أن فلسفته اللغوية في «مقاييسه» تقوم على التأصيل !!

وعلى هذه الصورة المفصلة من الايضاح والاستقصاء يتبيّن للمتأمل أن كمية الماء التي كان أخذها ايذاناً باجتياز النهر صارت علماً على الجائزة بمعناها العام الواسع في مختلف ميادين الحياة العامة حتى شاعت في العطاء المتنوع كجائزة الرواية والشعر والفوز في المسابقات الرياضية وجوائز الحظ «النصيب» والجوائز التشجيعية وجوائز الانتاج .. حتى تصل الى الجوائز العالمية كجوائز الأعمال «السينمائية» وجائزة «نوبل» وجائزة «اللوتس» وما شابه ذلك من جوائز .

□ الحواشي :

- ١ - مقاييس اللغة (جوز) : ٤٩٤/١ بتحقيق عبد السلام هارون ط : البابي الحلبي - الثانية ١٩٦٩ .
- ٢ - لسان العرب لابن منظور (جوز) ط : دار صادر .
- ٣ - نفسه .
- ٤ - انظر المعجم الوسيط (جوز) - دار احياء التراث ط القاهرة الثانية . دار المعارف بمصر ١٩٧٣ .
- ٥ - انظر شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين الخفاجي : ٧٢ المطبعة الوهبية بمصر . ولسان العرب (جوز) .
- ٦ - شفاء الغليل : ٧٢ .
- ٧ - الزهر في علوم اللغة وانواعها لجلال الدين السيوطي : ٣٠٠/١ تحقيق محمد جاد المولى وزميليه ، ط : البابي الحلبي وشركاه .
- ٨ - فتوح البلدان : ٣٨٤ ط : بيروت - لبنان ١٩٨٣ .
- ٩ - لسان العرب (جوز) .
- ١٠ - نفسه ، وتهذيب اللغة للأزهري (جوز) .
- ١١ - اللسان والمعجم الوسيط (جوز) .
- ١٢ - مقاييس اللغة (جوز) : ٤٩٤/١ .